

السلام شرعة إلهية وضرورة إنسانية دراسة فى دور القادة الدينيين فى نشر ثقافة السلام

الأستاذ الدكتور / أحمد إسماعيل أبو شنب

رئيس قسم الدعوة بكلية الدراسات الإسلامية

جامعة الأزهر

مصر

مقدمة :

الحمد لله الذى خلق الوجود برحمته، وأعز الإنسانية بعبادته، وهدى الخلق إلى شرعته، وأطلع عباده على دقائق لطفه، فخير طواياهم، وعلم علانيتهم ونجواهم، واطلع على خائنة أعينهم وما تخفيه صدورهم، وأصلى وأسلم على نور الله تعالى للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله، رسول الإنسانية، ومشكاة العناية الإلهية والهداية الربانية، رسول جعل السلام شرعة ومنهاجاً، وقيم الخلق ديناً وسراجاً منيراً، يبلغ به صاحبه حلم الأنبياء، وحكمة الحكماء، ويفوق به ألسن البلغاء، وبيان الفصحاء، رسول جعل الحق والعدل والخير جمالاً وحلية وبهاء، فحمى به المستضعفين من الرجال والنساء والوالدان وقبل جوار المستجيرين، وأمان الطالبين، وأوفى بعهد المعاهدين، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد ،،

فلقد شهدت الساحة الإسلامية فى مصر والعالم الإسلامى منذ ثمانينات القرن الماضى أحداث عنف وإرهاب كان ضحيتها الأبرياء والأمنين والمسالمة، وازدادت ضراوتها فى الآونة الأخيرة،

فتمخض عنها سلسلة من الاغتيالات لقيادات سياسية وقضائية ومواجهات عسكرية دامية ضد عناصر من قواتنا المسلحة والداخلية، وقد غذت هذه النزعة الإرهابية ثقافة الكراهية والبغضاء ونزعة العنف، تدعمها قوى خفية بالمال والسلاح، بغية تقويض مسيرة الإصلاح، وإجهاض الدولة المصرية، وليس بخاف على كل ذى عقل أن ثقافة الكراهية والعنف والإرهاب ظاهرة مرضية خطيرة تغذيها عوامل نفسية وفكرية تفعل من نزعة الـ « أنا » المذهبية والسياسية لدى تلك الاتجاهات التي تتخذ العنف والإرهاب شرعة للتغيير، وتعتبر القتل والتدمير منهجاً للإصلاح المزعوم ! .

وقد انبرى بعض دعاة تلك الاتجاهات لإصدار فتاوى مغرضة وآثمة بإباحة القتل والتصفيات الجسدية وأعمال العنف والتخريب، فعّلت من موجات الإرهاب العاتية فى بحر لجمي مظلم وآسن ضد مجتمع مسالم وجيش عظيم يدافع عن الدين والوطن والعرض والمال والأنفس . زاعمين أن الإسلام يأمرهم بهذا، وواهمين أن مجرد الخلاف السياسى والثقافى يبيح تكفير المخالفين وقتالهم !! . إن ثقافة العنف والكراهية والإرهاب - التى تمارس فى مصر والعالم الإسلامى من أناس لم يحسنوا من الفقه عدته، ولا من العلم منهجه ووسيلته - تتناقض مع مبادئ الإسلام وأصوله التشريعية ونظمه الاجتماعية والسياسية، ومقاصده التشريعية، وقيمه الإنسانية، وثقافته الرشدة التى تقبل كل خلاف فى الرؤى والتصورات إلا التكفير والدماء بلا مبرر شرعى أو حجة علمية، متجاهلين قول الرسول ﷺ : " ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي لذى عهد عهده فليس منى ولست منه " (١) .

وقد أرسى القرآن الكريم والسنة الشريفة مبادئ السلام وأصوله من حسن الجوار، وعقود الأمان والمعاهدات والصلح، والنهى عن التكفير بلا بينة أو حجة، والتعاون على البر والتقوى، والنهى عن التعاون على الإثم والعدوان، وإصلاح ذات البين، وإيقاظ الضمير الإنسانى، والالتزام الدينى نحو المجتمع بكل فصائله وأطيافه .

وقد أبرزت قيادات الأمة الدينية عبر عصورها المختلفة بدءاً من الجيل الرائد - جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم، وإلى يومنا هذا - أبرزت هذه الأصول والمبادئ الدينية الإسلامية التى تقرر أن السلم شرعة إلهية، وضرورة إنسانية، وحاجة اجتماعية، وحتمية عقلية، ومطلب فطرى . وقد جاء هذا البحث ليمثل رؤية دينية ترتشف من عبق التشريع الإسلامى، وتهتدى بهديه فى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة من الكفر، ح (١٨٤٨)، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربى - بيروت - بدون تاريخ ٣ / ١٤٧٦ .

معالجة إشكاليات ثقافة العنف والكرهية، وتبرز قيم ثقافة السلام البنائية والعقبات التى تتهددها، وتبين ثمراتها الناضجة على الصعيد الدينى والثقافى والاجتماعى والسياسى، وتمثل رؤية إصلاحية، لعلَّ العقل يثوب والضمير يحيا، ويدب فى الوجدان الشعور الإنسانى الذوقى، وفى القلب روح الإيمان .

وقد تضمن هذا البحث ما يلى :

- ١ - المبحث الأول : ثمرات ناضجة فى غصون ثقافة السلام اليانعة .
 - ٢ - المبحث الثانى : المؤثرات الثقافية على البناء التكوينى للقيادة الدينية وأثرها فى نشر ثقافة السلام .
 - ٣ - المبحث الثالث : آثار ثقافة العنف والكرهية .
 - ٤ - المبحث الرابع : نماذج من أقوال القادة الدينيين ودورها فى نشر ثقافة السلام عبر العصور .
 - ٥ - الخاتمة : وبها أهم النتائج والتوصيات.
- ﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

المبحث الأول

ثمرات ناضجة في غصون ثقافة السلام

لثقافة السلام في التشريع الإسلامي قيم كبرى وغايات سامية تستقيم بها حياة البشر، وتتظم بها شئونهم، وتسكن نفوسهم؛ لأنها تلبي المتطلبات الضرورية للعيش المشترك وتحقق السلام الاجتماعي وتدفع إلى التنمية البشرية، والعمل العمراني، وتفعيل الطاقات والقدرات الذاتية والملكات والمواهب الإلهية .

ومن هذه الثمرات ما يلي :

- ١ - الائتلاف لا الاختلاف .
- ٢ - التعايش السلمى .
- ٣ - رعاية الحقوق والواجبات .

المطلب الأول

الائتلاف والاختلاف

لا مرية أن الائتلاف والاختلاف مصطلحان مختلفان من حيث الدلالة والمقصد، فالمصطلح الأول يفيد دلالة الائتلاف والتوافق، ومقصده محاربة التشرذم، وتحقيق المصالح الكبرى للمجتمعات الإنسانية بوجه عام، والإسلامية بوجه خاص . بينما يفيد المصطلح الثانى دلالة التناقض والتناكر، والتضارب والتضاد، والانقسام والصراع .

وعندما نتأمل واقع الأمة نجد أن معطياتها الثقافية فى بعض عصورها- لا سيما فى العصر الحديث - تنزع إلى الاختلاف أكثر مما تعمل على الائتلاف، وقد شاب أطروحاتها الفكرية جدليات تتحول فيها من إكفاء القيم الإيجابية إلى اختلاف مذموم يزكى القيم السلبية .

وبينما يحظى الأخير بمساحات عريضة على موائد الثقافة وميادين الفكر تتضاءل مساحة الأول، ويتوارى خلف سحب متكاثفة من التعصب الممقوت الذى يفرق ولا يجمع، يشرذم ولا يوحد، وينزع إلى تكوين صورة معتمة لا يمكن من خلالها رؤية مستقبل الأمة الثقافى والفكرى، ولا حل مشكلاتها أو معالجتها، مما ينعكس سلبا على أمنها المجتمعى بكل صورته وأشكاله، وهذا يناقض طبيعة الثقافة الإسلامية.

وقد حرص الرسول ﷺ فى تربية الجيل الرائد الذى يتولى القيادة الدينية فيما بعد على مبادئ التوافق، ونبذ الخلاف والفرقة، وتوحيد الصف، التى دعا إليها القرآن الكريم : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١).

وقد ذكر المفسرون أقوالاً (٢) فى معنى الاعتصام بحبل الله تعالى؛ كان من بينها قول ابن مسعود ؓ : « هو الجماعة، قال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة» ، أما قوله تعالى ناهياً عن الفرقة : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) ورد فى معنى « حبل الله » القرآن الكريم، أو بأمر الله، أو طاعة الله تعالى . يراجع : تفسير لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن، تحقيق / محمد على شاهين ٢٧٧/١ - دار الكتب العلمية - بيروت، ط : ١٤١٥ هـ .

أى لا تتفرقوا كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضاً ويقتل بعضكم بعضاً، وقيل: لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق والاختلاف، والأمر بالاتفاق والاجتماع والألفة التى أنتم عليها^(١).

ومع أن تراثنا الفقهي ملئ بهذه اللآئى الحسان التى تنتظم عقد الأمة المنضود إلا أنه للأسف تبرز فى بعض الاتجاهات الثقافية الموجهة فى عصرنا الحديث بعض الآراء المثيرة للفرقة، قاضية تارة بنكفير المخالف، وتارة ثانية بتظليمه، وثالثة بتفسيقه، مما أدى إلى شردمة الأمة وفرقتها، وهكذا تدعو هذه الثقافات المغرضة الملونة بالعصبية المقيتة، بينما تدعى أنها تتبع منهج السلف الصالح!! وقد شدوا عن النهج الصحيح، فجعلوا الاختلاف السياسى مبنى لأحكامهم الجائرة، فى حين يدعون إلى الترابط داخل جماعتهم التى ينتمون إليها.

إنها اختزالات هزيلة، تلك التى تختزل الدين فى الرأى، والأمة فى الجماعة، والإسلام فى التوجه، والانتماء فى التمذهب المرذول.

إن حالات الاحتقان التى تعيشها الشعوب العربية والإسلامية بتأثير تلك الثقافات لتتدر بمخاطر صراع دام يتربص بالأمة فى أمنها ومستقبلها القريب، لا سيما أن ثمة فتاوى منشورة على شبكات التواصل الاجتماعى، الإنترنت واليوتيوب، ملونة بلون الدماء، وتتوشح بوشاح المذهبية المقيتة وتتغذى بفكر العنصرية، تعمق من انقسام النسيج الاجتماعى للأمة، وتعمل على تحلله وإذابته، بل وتدعو إلى مواجهات دامية ومسلحة وأعمال تخريب وتدمير.

وهنا تبرز أهمية دور القادة الدينيين فى مواجهة هذه المبادئ الفاسدة التى تؤدى بالأمة إلى مزيد من الانقسام والصراع، وكشفها أمام الرأى العام، والتحذير من اتباعها والسعى وراء مقاصدها.

ولقد كان هذا حال القادة الأول من الجيل الرائد - جيل الصحابة ثم التابعين وتابعيهم رضى الله عنهم - يقربون ولا يبعدون، يوحدون ولا يفرقون، يأتلفون ولا يختلفون، ويدعمون قيم الألفة ونبذ الاختلاف، مستلهمين من رحيق التربية النبوية الشريفة عقب الائتلاف الفواح ونبذ الاختلاف الفضاح.

وكان رسول الله ﷺ قد حذر الأمة من المقدمات التى تؤدى إلى هذا المسار اللاواعى كالظن السئ والتجسس والتحاسد والتباغض والتدابير، لما لها من أبعاد نفسية خطيرة على ائتلاف الأمة ووحدتها، فهى تزكى الخلاف، والاستمرار فيها يؤصل نزعة فى المجتمع، وتأتى هذه النزعة لنقود المجتمع إلى تناقض القيم وصراع الأفكار وتنتهى بالشقاق ثم بالصدام الدامى.

(١) نفس المرجع : ٢٧٧/١ .

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : " إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا ".
وقد نقل عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : لا تظن بكلمة خرجت من أخيك شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملا، فإنما ينشأ سوء الظن من خبث النية وسوء السريرة .
وروى عن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : " استتوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم " ، قال أبو مسعود : " فأنتم اليوم أشد اختلافًا " (١).

هذه الروايات - وغيرها كثير - تدل على أن الائتلاف أصل من أصول النسيج البنائى الحى للمجتمع الإسلامى بدءًا من التعبد وانتهاءً بالخلق والسلوك، وأن الاختلاف مرذول وشاذ، ذمه الشرع ونهى عنه ؛ لأنه يؤدي إلى فساد البنية الاجتماعية وتدنيس الفطرة وازدراء الذوق العام .

(١) رواه مسلم بسنده عن أبي مسعود رضي الله عنه : كتاب الصلاة . باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول . رقم ٤٣٢ من شرح النووي على مسلم - دار الخبير ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

المطلب الثاني التعايش السلمى

التعايش السلمى أحد الثمرات الناضجة لثقافة السلام، وقد أدرك أهميتها لاستقرار المجتمعات الإنسانية القيادات الدينية عبر عصور الأمة الزاهرة؛ ذلك أن التعايش السلمى ضرورة إنسانية (١) وحاجة اجتماعية ومبدأ شرعى، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يختلف الناس فى توجهاتهم وثقافتهم ومعتقداتهم لا سيما أن الله تعالى عرض عليهم الدين عرضا وكلفهم اختيارا بقبوله، وحملهم مسئولية عدم الإيمان به، ونهى عن إكراههم على الاعتقاد فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا^ط الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ^ط إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٢) ولم يقل «إنا فرضنا» (٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ^ط مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا^ط أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى^ط يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٤) والمعنى فلا تكره (٥) الناس على الإيمان.

فنحن إذا أمام قضية تؤكد الثانية منهما الأولى، وهما «الاختيار» و«الإكراه» أى اختيار الدين والإكراه على التزامه، والقضية الأولى مثبتة، أما الثانية فمنفية، ومن المقرر عقلاً رفع التناقض وعدم قبوله، ولأن الإكراه يتنافى مع الاختيار نهى عنه الشارع الحكيم قال تعالى: ﴿وَمَا^ط أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ^ط فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٦)، وقال تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ^ط

(١) راجع : الإسلام عقيدة وشريعة: الشيخ شلتوت ص ٤٤، ٥٥، ٣١٤ - دار الشروق، ط : ١٧ / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

(٢) الأحزاب : ٧٢ .

(٣) راجع : الإنسان فى القرآن: للعقاد ص ١٩ - ٢٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م، والإسلام دين الإنسانية: أنا مارى شيمل ص ٥٢، ٥٣، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تقديم د. محمود حمدى زقزوق، وترجمة د / صلاح محبوب، ط: ٣ - جمادى الأولى ١٤٢٨هـ - مايو ٢٠٠٧م .

(٤) يونس : ٩٩ .

(٥) الإتيقان فى علوم القرآن: للإمام السيوطى .

(٦) ق : ٤٥ .

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(١).

وبمقتضى الاختيار ينقسم الناس إلى مؤمن وكافر، ويختلفون في دياناتهم، فمن واضع لنفسه ديانة، ومن محرف لدينه الذى أنزله الله تعالى، ومن ملتزم به متبع تعاليمه، بيد أن قضية « المحاسبة والجزاء » على الإيمان والكفر لم تكن بيد نبي ولا رسول ولا ملك مقرب، وإنما هى بيد الله تعالى وحده، يحاسبهم على ما فرطوا فى رسالاته .

ولما لم يكن الاختلاف فى الاعتقاد مسوغاً للقتال، ولما انقسم الناس فيه، وتنوعت مشاربهم، وتناقضت مصالحهم، ولما كانت الحياة قسمة إلهية بين البشر لا يملكون مناصاً أن يحيوها - بغض النظر عن اعتقاداتهم - لما كان الأمر كذلك فرضت الضرورة الحياتية العيش المشترك بين الناس؛ إذ ليس من المعقول أن يستأصل المخالفون فى الاعتقاد، أو أن يتعرضوا لإبادة جماعية وتطهير عرقى على خلفيات الاعتقاد، طالما أن حسابهم على الله تعالى، فقد أبقى الله تعالى الكافر حياً مع كفره، ورزقه مع إنكاره نعمة المنعم، فلم يخلق تعالى الحياة للمؤمنين به دون غيرهم، وإن جعل الدنيا دار ابتلاء للمؤمنين والكافرين، وإن عذب فيها من عصاه أو كفر به .

وقسمة الحياة المشتركة ضرورة تقتضى حتمية تبادل المصالح والمنافع، ودرء المفساد الاجتماعية وصيانة حياة الإنسان .

وقد أدرك الرسول ﷺ هذه القيم الضرورية للعيش المشترك - وهو المبلغ عن الله تعالى رسالته ودينه - فتعايش مع غير المسلمين، واقتضته ضرورة الحياة التعامل معهم، واقتضى حسن جواره ﷺ أن يحسن إليهم، وقد عفا وصفح بعد إيذاء واضطهاد عندما قدر وملك، وعقد المعاهدات والصلح مع غير المسلمين ، ولئن كان الله تعالى قد فرض عليه القتال فهو قتال من قاتله وأصر على فنتة المسلمين فى دينهم، لا قتال من سالمه وخلقى بين الناس وبين ربهم .

فالقتال فى منظور الثقافة الإسلامية لم يكن أصلاً من أصول التنظيم الاجتماعى فى الإسلام، ولم يكن مبدأً يؤسس لقيام مجتمع، ولا نهضة أمة، وإنما كان ضرورة عقلية ونفسية وشرعية وفطرية لدفع العدوان والدفاع عن النفس، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ

(١) الغاشية : ٢٣ - ٢٦ .

اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١﴾ ولم يذكر الله تعالى المأذون فيه، وهو القتال، رغبة عنه؛ لأن الهدف من جاهدة المسلمين عدوهم الباغى ليس إراقة الدم وإنما صد البغى والعدوان .

والذى شرع قتال من قاتل هو الذى شرع مبادئ البر والقسط مع المسالمين، قال تعالى :
﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٢﴾، ولو كان القتال أصلاً من أصول التنظيم الاجتماعى فى الإسلام لفرضه الله تعالى
مع غير المسلمين فى كل الأحوال - فى حال السلم وحال القتال - ولم يرد نص بإباحة القتال
بصورة مطلقة، فهو ضرورة تقتضيها الضرورة .

ومما يؤكد أن السلام قضية فطرية وأصل من أصول التنظيم الاجتماعى فى الإسلام قول الله
تعالى أمرا رسوله ﷺ إلى الركون إلى السلام ما رجع العدو عن القتال : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ
فَاجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ اللَّهُ ۗ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ۖ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۗ لَوْ أَنفَقْتَ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ۗ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾،
فبمجرد جنوح العدو إلى السلم يجب الجنوح إليه .

ومراعاة لهذه الضرورة الإنسانية وانطلاقاً منها وتقديرًا لقيمتها للتعايش السلمى بين الناس
أقام رسول الله ﷺ علاقات إنسانية من أجل تحقيق مصالح الأمة ومراعاة حقوق الجوار، وقد وردت
روايات عديدة فى السنة النبوية الشريفة تؤكد ذلك، منها ما يلى :

١ - استنجار الرسول ﷺ ابن أريقط دليلاً لهجرته إلى المدينة: حيث استأجر النبى ﷺ وأبو
بكر ﷺ رجلا من بنى الدليل ثم من بنى عبد بن عدى هادياً خريئاً - ماهراً بالهداية - قد غمس

(١) الحج : ٣٩ .

(٢) الممتحنة ٨ - ٩ .

(٣) الأنفال : ٦١ - ٦٣ .

يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليل ثلاث فارتحلا^(١).

٢ - استخدام الرسول ﷺ غلاماً يهودياً : روى أنس ﷺ قال : " كان غلام يهودى يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له : أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذى أنقذه من النار " ^(٢).

٣ - قبول الهدية من امرأة كافرة كانت قد أهدت إليه شاة وضعت فيها السم فقبلها رسول الله ﷺ منها ولم يكن يعلم أنها مسمومة . فقد روى عن أبى هريرة ﷺ قال : " لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم " ^(٣)، وروى عن أنس بن مالك ﷺ أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها فقيل: ألا نقتلها ؟ قال: لا. فمازلت أعرفها فى لهوات رسول الله ﷺ ، ولهوات جمع لهاة، وهى اللحمه الحمراء المعلقة فى أصل الحنك " ^(٤) .

٤ - رهن الرسول ﷺ درعه عند يهودى : روى عن أنس بن مالك ﷺ « أنه مشى إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة سنخة، ولقد رهن النبي ﷺ درعاً له بالمدينة عند يهودى، وأخذ منه شعيراً لأهله، ولقد سمعته يقول : ما أمسى عند آل محمد ﷺ صاع بر، ولا صاع حب، وإن عنده لتسع نسوة » ^(٥) .

٥ - عفو الرسول ﷺ عن أهل مكة بعد الفتح وهم الذين آذوه وأصحابه وتآمروا على قتله؛ قتلوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم وسلبوا أموالهم، فقد روى عن صفية بنت شيبة قالت : لما نزل رسول الله ﷺ واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتح له فدخلها، ثم وقف على باب الكعبة فخطب، قال ابن إسحق : وحدثني بعض أهل العلم أنه ﷺ قام على باب الكعبة، فنكر الحديث، وفيه ثم قال : " يا معشر قريش، ما ترون

(١) البخارى: ٢٢٦٣، (٣ / ٨٨)، كتاب الإجارة، باب استتجار المشركين عند الضرورة، أو إذا لم يوجد أهل الإسلام .

(٢) رواه البخارى بسنده عن أنس : كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبى الإسلام، رقم ١٢٩٠ .

(٣) رواه البخارى بسنده عن أنس بن مالك : كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين رقم ٢٤٧٤ .

(٤) رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة كتاب المغازى، باب الشاة التى سمت للنبي ﷺ بخبير، رقم ٤٠٠٣ .

(٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى : كتاب البيوع، باب شراء النبي ﷺ (٤ / ٣٥٤)، رقم ٢٠٦٩، وإذا كان رهن الدرع جائزاً إلا أنه عند العلماء لا يجوز رهنه عند الكافر المحارب . راجع شرح الحديث لابن حجر .

أنى فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ... " (١).

٦ - قبول الهدية من المقوقس عظيم مصر؛ وكان قد أهدى إليه جارية هي مارية القبطية فأسلمت وتزوجها الرسول ﷺ، فقد روت كتب السير أن الرسول ﷺ أرسل إلى المقوقس عظيم مصر بكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة يدعوه فيه إلى الإسلام، وقد رد عليه المقوقس بكتاب جاء فيه: « بسم الله الرحمن الرحيم : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكتب أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجارينين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك، ولم يزد على هذا، ولم يُسلم. الجارينتان مارية وسيرين، والبغلة بقيت إلى زمن معاوية، وكانت شهباء » (٢). وكان قد أتى على رسول الله ﷺ إلا أنه لم يسلم .

٧ - عقد الرسول ﷺ المعاهدات والصلح :

أ - صلح الحديبية:

عقد رسول الله ﷺ مع المشركين صلح الحديبية وهو في طريقة من المدينة إلى مكة، وقد خرج مع المسلمين لا يقصد غير العمرة، ولم يكن قد جاء لقتال، لكن قريشاً منعتهم من دخول مكة، وأرسلوا سهيل بن عمرو للتفاوض مع رسول الله ﷺ، وكان الكاتب على بن أبي طالب ﷺ، وقد كان نص المعاهدة : قال النبي ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال: سهيل أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو، ولكن: باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا : بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ اكتب « باسمك اللهم » ، ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله ، ولو كذبتُموني، « اكتب: محمد بن عبد الله » فقال النبي ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به، فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل : وعلى ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا قال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء

(١) أخرجه ابن حجر في فتح الباري بشرح البخاري : كتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة عن ابن أبي شيبة من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب مرسلًا نحوه وعند ابن أبي إسحاق بسند حسن: عن صفية بنت شيبة .

(٢) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: لابن سيد الناس الأندلسي ٣٤٨/٢، وراجع الطبقات الكبرى: لابن سعد ٢٦٠/١، وتاريخ الإسلام للذهبي ٤٤٥/٢ .

مسلمًا؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى فقال النبي ﷺ: "إنا لم نقض الكتاب بعد" قال: فوالله إذا لم أصلحك على شيء أبدا، قال النبي ﷺ: "فأجزه لي" قال: ما أنا بمجيزه لك: قال: "بلى فافعل" قال: ما أنا بفاعل، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرِد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟! ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله^(١). ومع قسوة بنود الصلح وثقلها على المسلمين فإن رسول الله ﷺ وافق عليها لما رأى فيها من خير لم يدركه أصحابه - رضى الله عنهم - في المستقبل القريب، وقد حرص ألا يراق دم وقد جاء قاصدًا العمرة، كما حرص على تعظيم البيت الحرام، لكنها فرص العيش المشترك، والركون إلى السلم العام، وتحقيق أمن المجتمع الإسلامي الذي حرص عليه الرسول ﷺ.

ب - معاهدات رسول الله ﷺ مع اليهود في المدينة :

بعد هجرته إلى المدينة قام رسول الله ﷺ بإقامة معاهدات مع اليهود وأحلافهم جاء فيها: «إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن لليهود بنى النجار، وبنى الحارث، وبنى ساعدة، وبنى جشم وبنى الأوس وبنى الشطيبة مثل ما لليهود بنى عوف، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون إثم، وإنه لم يَأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح فإنهم يصلحون، إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وإن الله جار لمن بر وانقى»^(٢).

ج - معاهدة الرسول ﷺ مع نصارى نجران :

وجاء فى هذه المعاهدة: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير»^(٣).

(١) البخارى: كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، رقم ٢٥٨١،

مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، رقم ١٧٨٤.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٥٠٣/١، ٥٠٤: مرجع سابق.

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة، باب وفد نصارى نجران ٤٨٥/٥، والخراج: لأبى يوسف ص ٧٢.

د - معاهدة الرسول ﷺ مع بنى ضمرة التي تقيم في منطقة ودان غرب المدينة، وقبائل جهينة في الشمال الغربي للمدينة^(١) على مثل هذه المبادئ .

فإنظرًا لتعدد الأعراق، واختلاف المعتقدات، وتغاير الروابط الاجتماعية القبلية في المجتمع الجديد أراد الرسول ﷺ أن يزيل حالات الجمود الاجتماعي والاحتقان، وربما الصراع المتوقع في مستقبل الدولة القريب مراعيًا ضرورة الحفاظ على النسيج الاجتماعي، وأنه لا يمكن للدولة أن تقوم في ظل تلك الاضطرابات والنزاعات المسلحة.

٧ - نهيه ﷺ جنوده عن قتال المسالمين، والكهول، والنساء ، والأطفال، ونهيه عن قطع الشجر، وهدم دور العبادة لغير المسلمين، ومن الروايات التي تؤكد هذا حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: " وانطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين " (٢) .

وقد أوصى أبو بكر الصديق ؓ أميراً له : « لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيراً هرمًا، إنك ستتمر على قوم قد حبسوا أنفسهم في الصوامع، زعموا لله، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له » (٣).

٨ - النهي عن إيذاء أهل الكتاب الذين هم في ذمة المسلمين وحمايتهم : فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : " ألا من قتل نفساً معاهدًا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا " (٤).

وهذه الروايات تؤكد حتمية العيش المشترك قضاءً لمصالح الأمة الضرورية ومراعاة للسلم الاجتماعي، وتقديرًا لحق الآخرين في الحياة، وبيانًا لأهمية وحدة النسيج الاجتماعي، وحماية المجتمع من الصراع الذي يقوض أركانه ويهدد سلمه وأمنه، وجاء نهيه ﷺ عن ترويع الأمنيين ليضرب أروع الأمثلة في تاريخ الإنسانية لم تعهده الإنسانية من قبل .

(١) الطبقات الكبرى: لابن سعد ٢٧٢/١ - مرجع سابق .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه بسنده عن أنس ؓ ٣٧/١٣، الحديث رقم ٢٦١٤ كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين.

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول: لابن الأثير ٥٩٩/٢ مرجع سابق .

(٤) الترمذي: بسنده عن أبي هريرة ؓ ، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن يقتل نفساً معاهدة ٢٠/٤، حديث رقم ١٤٠٣.

ذلك هو تشريعنا الحكيم، وتلك هى ثقافتنا الإسلامية الناضجة، وقد راعى القادة الدينيون الأوائل هذه المبادئ التشريعية والقيم الثقافية فى سياساتهم للرعية واضطلاعهم بمسئوليات البلاغ الدعوى، ونشر الإسلام فى ربوع الأرض، ودخل الناس فى دين الله تعالى أفواجا لما رأوه من سمو خلقهم ونبل قيمهم، وارتقاء ذوقهم، وحسن معاملتهم .

وقد عظم القرآن الكريم العقود والعهود، وأمر المسلمين بالتزامها، والوفاء بها، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ^ع إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ^(١)، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ^ع إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) وهو استثناء من القتال تقديرا لقيم العهود؛ لأنها مبادئ قيمة وضرورية لبناء المجتمع ما توفرت شروطها والتزمت الأطراف بها .

أين دعاة العنف والتطرف من هذه الثقافة الإسلامية ونهج رسول الله محمد ﷺ الإنسانى ؟ أين مقاصدهم التى يدعون أنها تتفق ومقاصد الشريعة الإسلامية من هذه السياسة السليمة ؟ وهل أدركوا هذه القيم التى التزم بها القادة الدينيون من الصحابة والتابعين والدعاة المصلحين، وقد استقامت بها حياة الناس فصانت أرواحهم وحفظت أموالهم، وراعت مصالحهم ؟ .

(١) النحل : ٩١ .

(٢) التوبة : ٤ .

المطلب الثالث

مراعاة الحقوق والواجبات

مراعاة الحقوق إحدى ثمرات ومقاصد الشريعة الإسلامية، وثقافتها الوسطية السليمة الناضجة، وإنها لتضرب أروع الأمثال في تاريخ البشرية، إذ لم ترق إليها أى تشريعات أخرى في صيانة الحقوق والواجبات لغير المسلمين في المجتمع الإسلامى، وفي ظل الدولة الإسلامية . وتؤكد هذه الثمرة الطيبة للثقافة الإسلامية على مدى مراعاتها للمبادئ الإنسانية وتلبية الحاجات الضرورية اللازمة لبناء منظومة اجتماعية مستقرة وآمنة .

وقد شرع القرآن الكريم قاعدة عامة في التعاملات وما تقتضيه من حقوق وواجبات، وهى وإن وردت فى تطهير الأموال من الكسب الحرام (الربا) إلا أنها تخرج مخرج الخاص الذى يمكن تعميمه، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^ط وَإِن تَبَتَّمْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿^(١)﴾ .

وقد صار تذييل الآية الكريمة: ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ قاعدة عامة تنظم الحقوق والواجبات، وضبط نظم المعاملات بين المسلمين، وبينهم وبين غيرهم، وقد وردت روايات السنة الشريفة بما يؤكد الحفاظ على الحقوق والواجبات مع غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى بنص صريح التأويل، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »^(٢)، وقد تضمن الحديث الشريف النهى عن صور الظلم ومنها .

١ - الظلم بصورته المطلقة .

٢ - انتقاص الحقوق .

٣ - التكليف بما لا يطاق .

٤ - غصب المال .

(١) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) أبو داود فى سننه: بسنده عن عدد من أبناء صحابة رسول الله ﷺ عن آبائهم فى كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجاراات ٣ / ١٧٠، حديث رقم ٣٠٥٢ - مرجع سابق .

وتعظم صورة النهى النبوى عن ذلك عندما يجعل النبى ﷺ من نفسه حجيجاً لمن فعل ذلك من المسلمين. وقد روى عن الرسول ﷺ: " فإذا قبلوا عقد الجزية فأعلمهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين " (١).

وذكر مالك عن جعفر بن محمد بن على عن أبيه، أن عمر بن الخطاب ؓ ذكر المجوس فقال : ما أدري كيف أصنع بهم، فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " (٢).

وإذا صح رأى أن الجزية كانت تؤخذ من أهل الكتاب مقابل حمايتهم والدفاع عنهم دون اشراكهم فى القتال، ولما كانت الأحكام تدور بعلمها ، ولما كان اشتراكهم مع المسلمين فى القتال الآن دفاعاً عن الدولة حاصلاً ، فإن العلة منتفية وانتفى بانتفائها الحكم .

العهد العمرى لأهل إيليا القدس وإقرار ميثاق الحقوق والواجبات :

تأتى العهد العمرى من قائد دينى وسياسى محنك ، حكيم القرار، بصير برعيته هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ؛ لتضرب أروع الأمثلة على مدى حفاظه على أمن المجتمع ورعايته لحالة سلمه العامة، وقد شهد على هذه العهد من الجيل الرائد أربعة شهود هم : خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان، وكان نص العهد : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان، أعطاهم لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا منهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على

(١) ذكره الكاسانى فى بدائع الصنائع : كتاب السير، فصل فى بيان ما يفترض من الأسباب المحرمة للقتال، ١١٠/ ٧، وقد اعتبر بعض العلماء هذا الحديث قاعدة عامة فى التشريع الإسلامى فى معاملة أهل الكتاب، منهم الإمام محمد عبده فى رسالة التوحيد ص ٨٩، والشيخ محمد الغزالى فى كتابه التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام: ص ٤٣، والشيخ محمد متولى الشعراوى فى تفسيره ١٨ / ١١٢٠٨، وفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى ٨٥/٤، والشيخ المراغى فى تفسيره ٦٨/ ٨ واعتبرها حديثاً.

(٢) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار: لابن عبد البر كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس، رقم ٥٧٧٦١٧ دار ابن قتيبة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م. وذكره الإمام مالك فى الموطأ بسنده عن محمد بن على عن أبيه. كتاب : الزكاة، باب جزية أهل الكتاب .

نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل أهل إيليا من الجزية، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية، كتب وحضر سنة خمس عشرة هجرية . شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان (١).

وبينما كان عمر رضي الله عنه يملئ هذا العهد حضرت الصلاة، فدعا البطريرق عمر للصلاة حيث هو فى كنيسة القيامة، ولكن عمر رفض وقال له : أخشى إن صليت فيها أن يغلبكم المسلمون عليها ويقولون: هنا صلى أمير المؤمنين (٢).

إنه تواضع المنتصر وفقه الحكماء وعدل القادة النبلاء، وتتجلى حكمة فقه هذه الرسالة عندما نعرف أنها جاءت ردًا على ما اقترحه عبد الرحمن بن غنم على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فى كتاب أرسله إليه، فكانت هذه العهدة العمرية أبلغ رد على مقترحات عبد الرحمن بن غنم التى كان فيها تضيق على أهل إيليا لم يرتضه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

تلك هى القيادة الدينية الراشدة التى التزمت التأسيس لثقافة السلام فى الإسلام تطبيقاً لمبادئه وعملاً بتشريعاته، وهذا ما فعله أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر الصديق من قبله التزاماً بمنهج رسول الله صلى الله عليه وآله مع المخالفين من أهل الذمة والذين كان بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله عهود ومواثيق .

(١) وكان هذا بعد انتصار المسلمين فى معركة اليرموك، وقد دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليتسلم مفاتيحها من بطريرك القدس صفرنيوس فى ١٥ هـ . نفس المرجع.

(٢) نفس المرجع .

المبحث الثانى

المؤثرات الثقافية على البناء التكوينى للقيادة الدينية

وأثرها على نشر ثقافة السلام

هناك مؤثرات تعمل بقوة فاعلة وبصورة سلبية على المحتوى التكوينى للثقافة المؤسسة للقيادة الدينية والبناء الفكرى الراشد وفقا لما تقتضيه مبادئ الإسلام وثقافته السليمة، وهى مؤثرات تعكس خطورة المكونات الفكرية والمكتسبات الثقافية اللاواعية المحلية والدولية والإقليمية، والتي تعمل بقوة على محور اللاسلم واللاأمن، مما يؤثر على التصور العالمى للإسلام، ويكون عقبة كأداء أمام نشر الدعوة الإسلامية فى سائر ربوع الأرض ومن هذه المؤثرات ما يلى :

- ١ - المؤثرات الثقافية بين الوعى واللاوعى .
- ٢ - ازدواجية المعيار وثنائية الانتماء .
- ٣ - الفرض الثقافى بين الانتقائية والتبرير .
- ٤ - الأطروحات الثقافية بين عنف الفكرة وفكرة العنف .

المطلب الأول

المؤثرات الثقافية بين الوعي واللاوعي

إن قضية الوعي قضية فكرية رئيسة وضرورة دينية لفهم ثقافة السلام في الإسلام ونشرها بين الناس، تتمثل في إدراك جوهر الإسلام وفهم رسالة الدعاة من القادة الدينيين وإدراك مستقبل الأمة، ولا يمكن أن تتحقق إلا بهذا الفهم الدقيق الذى يزكى القيم ويشعر بعظم المسؤولية وأمانة البلاغ الدعوى .

فالوعي هو الإدراك البصير، والفقہ الدقيق، والحكمة البالغة، والتفكير الواعى لإدراك طبيعة الثقافة الإسلامية وخصائصها من حيث كونها أمرًا بالمعروف وناهية عن المنكر، وداعية إلى الإصلاح لا إلى التخريب، وإلى قيم العزة لا إلى قيم الدونية، إنها قيم تهدى النفوس الحائرة والعقول الغارقة فى ظلام الوهم والفكر إلى قيم الحق والعدل والخير والجمال .

قال تعالى موجهًا رسوله الكريم: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١).

والبصيرة هى الوعي الذى نقصده، والعلم الذى ندعو إليه، إنه علم الدلالة والبيانات الباصرة والحجة واليقين لا الهوى^(٢)، وغياب الوعي حيرة وضلال، وتغييبه نزوع إلى اللا إدراك واللا فهم، وهو نزوع من لا يبصر المعانى الدقيقة، والمقاصد الإسلامية السامية فى إقامة المجتمعات، ونزوع من لا يعى حكمة الإسلام فى الدعوة إلى الله تعالى .

وخطورة اللاوعي تبدو عند إخضاع المفاهيم والمبادئ الإسلامية والغايات الثقافية لأطروحات الاتجاه، أو الانطلاق فى فهمهما من الثوابت المذهبية، أو الثوابت الثقافية ذات الصبغة الطائفية، أو الاتجاه الثقافى النزوعى المتطرف غلوًا أو تقصيرًا .

واتساع دائرة « اللاوعي » تتضمن تضيق دائرة الوعي، فهما نقيضان لا يجتمعان وظهور أحدهما يعنى بالضرورة اختفاء الآخر، وهذه حتميات عقلية، لا فروض جدلية؛ إذ لا يمكن تصور اجتماع البصيرة واللا بصيرة، أو العلم والجهل، أو الوعي واللاوعي .

(١) يوسف : ١٠٨ .

(٢) راجع التحرير والتنوير: لابن عاشور ٦٤/٣، ٦٥ . الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م، وتفسير الكشاف: للزمخشري ٥٠٨/٢، ٥٠٩، وتفسير البحر المحيط: لأبى حيان، ٣٨٩/٤، تحقيق / صدقى محمد جميل - دار الفكر - بيروت ١٤٢٠هـ .

ويزداد الأمر خطورة والوضع سوءا عندما يصر غير المدرك على أنه مدرك، والذي لا يعلم على أنه يعلم، فيزيين لنفسه بعدم علمه سوء نزوعه، وضالة عقله ونضوب حكمته، ومن ثم ندرك حكمة الفقهاء في قولهم: « من قال: لا أدري فقد أفتى »^(١)، ومن أفتى أنه لا يدري فلا جناح عليه، إنما الجناح على من أفتى وهو لا يدري .

ولا يخفى ما فى هذا النزوع من تلبيس وخط وتضليل للمدعويين، وقد ذكر الإمام ابن الجوزى أن مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - روى أن رجلاً سأله عن مسألة فقال: « لا أدري » فقال: سافرت البلدان إليك، فقال: ارجع إلى بلدك وقل سألت مالكا فقال: « لا أدري »^(٢).

إنه قول من فقيه حكيم عرف قدر نفسه فصانها عن القول بغير علم، قول يبرز قيمة الأمانة فى النقل والإفتاء والرأى والفكر وقيمة قائله، ما أعظمها من إجابة تصون العقل من مخاطر الجهل، والإنسان من جرأة الفتيا، والعلم من مأسن الهوى، والحقيقة من مسالك الشطط، والعقل من الذهول، والفكر من الدهشة، وتصون الدين من درك التمذهب البغيض .

وقد جاء القرآن الكريم وروايات السنة النبوية الشريفة لتحذر من خطورة اللاوعى الدافع إلى القول بغير علم، وعدته ضرباً من ضروب الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، ومن هذه الآيات الكريمة، والروايات النبوية ما يلى :

١ - قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمْ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾^(٣)

٢ - يَتَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٣١٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

٣ - ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

(١) صيد الخاطر: لابن الجوزى : فضل من قال: لا أدري فقد أفتى ص ٢٢٠ - دار ابن الجوزى - المملكة العربية السعودية، ط : ١/١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

(٢) نفس المصدر: ص ٢٢٠ .

(٣) النحل : ١١٦ .

(٤) البقرة : ١٦٨، ١٦٩ .

وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ ﴿١﴾ .

ومن السنة النبوية قول الرسول ﷺ :

١ - "من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار" (٢).

٢ - "ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" (٣).

٣ - " اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن

قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" (٤).

ومعنى من قال فى القرآن بغير علم، أى بغير دليل يقينى أو ظنى نقلى أو عقلى مطابق للشرعى. قاله القارى، وقال المناوى : أى قول يعلم أن الحق غيره، وقال فى مشكلة بما لا يعرف (٥).

ويتضح من هذه الآيات الكريمة ومن روايات السنة النبوية الشريفة وشروح العلماء مدى أهمية الوعى الإدراكى لفهم قضايا الدين وأدلتها الشرعية، وأن من تحكم فى تفسير آية قرآنية أو رواية عن رسول الله ﷺ وطوعها لرأيه ومذهبه أو موروثاته الثقافية فقد نزع من مجال فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وثنى عطفه ليضل عن سبيله، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهٗ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۗ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٦).

النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۗ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ .

وممكن الخطورة فى هذا الإطار أن يتم صرف الأدلة الشرعية النصية عن دلالاتها إلى دلالات أخرى قد تختلف معها أو تجافىها تركز إلى محض الرأى، وتتبع من هوى الموروث الثقافى أو التوجه المذهبي، إنه تغيير لمحتوى الدين، وتبديل لمقاصده، وعبث بدلالاته، وطمس

(١) الأعراف : ٣٣ .

(٢) الترمذى فى جامعه: وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح ١٩٩/٥ رقم ٢٩٥٠ .

(٣) أخرجه النسائى فى فضائل القرآن: والترمذى ١٩٩/٥، رقم ٢٩٥١ وقال : حديث حسن .

(٤) الطبرانى فى المعجم الكبير: عن عبد الله بن عباس، والترمذى فى سننه: بسنده عن ابن عباس مرفوعاً : كتاب

التفسير، باب ما جاء فى الذى يفسر القرآن برأيه، رقم الحديث ٢٨٩٤، وقال : حديث حسن .

(٥) تحفة الأحوذى فى شرح جامع الترمذى ٢٧٧/٨، ٢٧٨، والحديث رقم ٤٠٢٢ - دار الكتب العلمية - بيروت -

بدون تاريخ .

(٦) الحج : ٨ - ٩ .

لمحاسنه، وتصدير محض الرأى على أنه دين وشرع .
وفى هذا الإطار تَعَنَّتْ واعتساف يخرج الناس من الإيمان إلى الكفر، ومن الصلاح إلى الفساد، ومن السلم إلى اللاسلم ويبدل الناس من بعد أمنهم خوفاً، ينزع بهم منازع السوء ويمكر بهم المكر الخبيث، والعجب العجاب أن يصير هذا منهجاً فى الحكم على المخالفين !!
إن غياب الفقه الدقيق والإدراك الواعى والانعقاد من قيود منهجية الحكم المنضبطة هو الذى دفع هؤلاء إلى الحكم على المخالفين بالكفر فأباحوا دماءهم وأموالهم، وحكموا على من وافقهم بالممالة والفسق والنفاق أو بأنه كافر مثلهم !! وذيوع هذا النمط الفكرى - البالغ فى الإغراب منتهاه - عند هؤلاء يُسوغ إرهاب المجتمع وترويع الأمنين .
ومما لا ريب فيه أن هذا النزوع يهدد ثقافة السلم التى جعلها الإسلام منطلقاً آمناً لبناء النسيج الاجتماعى، ومراعاة ضروريات الحياة الاجتماعية المشتركة بين البشر، ويؤثر تأثيراً كبيراً على إعداد القادة الدينيين والمصلحين الاجتماعيين والعلماء المفكرين المجددين .
وما الانفلات الأمنى الواقع فى العالم الإسلامى إلا أثر مباشر لهذه النزوعات التى لا تركز إلا إلى ثقافات العنف الموجهة، والتى استقطبت العديد من فئات الشعب، ومن بينهم للأسف أطباء وصيادلة ومهندسون ومعلمون ظنوا أن العلم فيما تلقوه عن قادتهم وطلبوه من غير ذوى الاختصاص، فرسخت فى أذهانهم رؤى وتصورات صارت إلى العنف أقرب منها إلى السلم، وظنوا أن هذا جهاد فى سبيل الله، وما هو إلا جهاد فى سبيل الشيطان قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ^ط أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) وهل هناك أشد فحشا من قتل مسلم، أو ترويع آمن، أو إرهاب مسالم؟! ، ولا غرو فتلك هى ثقافة « اللاوعى » و« اللاعلم » و« اللافقه »، ثقافة تستمد روافدها من مأسن الفكر، والضال تغذيها كراهية بغیضة للمجتمع بكل أطيافه وانتماءاته ومشاربه واتجاهاته .

(١) الأعراف : ٢٨ .

المطلب الثاني

ازدواجية المعيار وثنائية الانتماء

إنَّ « ازدواجية المعيار وثنائية الانتماء » هي إحدى المؤثرات القوية على ثقافة السلام وبناء الشخصية المترنة؛ وتعنى ازدواجية المعيار: ممارسة معايير متناقضة في جوهرها، ومتباينة في مقاصدها، ومتضادة في اتجاهاتها، مع التعويل على المعيار المحدد للهوية بحيث يمثل مصلحة الاتجاه أو المذهب أو التوجه الذي ينتمى إليه .

وتكمن خطورة الازدواجية فيما يلي :

١ - اعتبار التناقض المعيارى قيمة ثقافية .

٢ - اعتماد الازدواجية مسلكاً دينياً .

٣ - الذوبان الثقافى على محور الازدواجية .

وهذه المخاطر تؤثر على وضوح القيم الثقافية والفكرية والدينية، وتبرزها بصورة متعددة الوجوه يصعب على المدعو التمييز بينها والانتماء إليها، مما يؤثر على الفئات من حيث اعتبارها وعدم اعتبارها والتردد في تقريرها، والتذبذب في تصديقها، وأعنى بـ « ثنائية الانتماء » اعتناق فكرتين متوازيتين فى آن واحد، وإن ناقضت إحداهما الأخرى فى المقصد والغاية والمحتوى الثقافى، مع ترجيح إحداهما على الأخرى أثرة وتعصباً، لا اعتدالاً وتوسطاً .

وعلى سبيل المثال، فإن هناك من يعلن انتماءه للإسلام وفى الوقت ذاته يعلن انتماءه لجماعة بعينها كجماعة « الجهاد » أو « التكفير والهجرة أو الإخوان » أو غيرها من الجماعات التى تتبنى فكرة العنف والقوة مسلكاً للتغيير الدينى والثقافى والإرهاب وسيلة لحمل الناس على اعتناق أفكارها .

مع أن هذه التوجهات تناقض فى محتواها الثقافى، ومناهجها الفكرية، ومقاصدها، وسطية الإسلام، ووسطية ثقافته، ومنهج الإصلاحى ومقاصده التشريعية، فالإسلام يدعو إلى التغيير السلوكى والقيمى والاعتقادى بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى، قال تعالى: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۗ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۗ ﴾ (١)

(١) النحل : ١٢٥ .

وهذا - على ما ذهب إليه العلماء الأثبات - منهج دعوى أمر رسول الله ﷺ بالتزامه فى الدعوة إلى الله تعالى سواء مع المسلمين أو الكافرين، فإن « من الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم فالأهم، وبالأقرب من الأذهان إلى الفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين؛ فإن انقاد بالحكمة وإلا فلينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، التى هى الأمر والنهى المقرونان بالترغيب والترهيب، إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهى من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله تعالى، وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو أن داعيه داعيه إلى الباطل فليجادل بالتى هى أحسن، وهى الطرق التى تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً .

ومن تلك المجادلة الاحتجاج عليه بالأدلة التى كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، كى لا تؤدى المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها «^(١).

والذى لا يمكن قبوله عقلاً الاعتقاد بأن العنف الدعوى يحقق من المقاصد الدعوية ما يحققه أسلوب الحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى، أو القول بأن طبيعة الأسلوبين واحدة، وعلى الداعى أن يحدد أى الأسلوبين يختار، وادعائه استواء الأسلوبين فاسد، لما يبدو فيهما من تناقض، ذلك أن الأسلوب البين فى القرآن الكريم أجدى وأنفع فى الدعوة إلى الله تعالى، وهو المعبر عن وسطية الإسلام فى مناهجه الدعوية، بخلاف أسلوب « العنف الدعوى » المعبر عن ثقافة الاتجاه لا عن ثقافة الدعوة الوسطية . وحصول القناعة بالأسلوبين معا ينفضه الواقع ويأباه المنطق، فإما أن يكون الداعى وسطياً، أو لا يكون، وإما أن يكون داعياً إلى الله تعالى بما ذكر أو داعياً إليه بنقيضه، ولا يمكن أن يصح الجمع بين الاثنين بحيث يقال: إنه يمكن الجمع بين الحكمة والعنف .

ذلك أن الإسلام يخاطب فى الإنسان ملكاته العقلية وطاقاته الوجدانية التى تدفعه إلى قبول قضاياها الدعوية، والتغيير بالقوة من اختصاص ولى الأمر، وليس من اختصاص الدعاة؛ إذ إن بناء التكليف فى الإسلام على الاختيار وليس على الإجبار، و« على العرض وليس على الفرض »^(٢)،

(١) راجع تفسير السعدى « تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان » ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ٤٥٢/١، وتفسير البغوى، دار طيبة ، ٤٦/٥ بدون .

(٢) راجع : الإنسان فى القرآن للعقاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ م ص ٢١ - ٢٧ . وراجع : مجموع الرسائل لابن رجب الحنبلى .

فإن أحداً لا يملك إجبار أحد على اعتناق الإسلام قهراً ؛ إذ لا معنى عندئذ للإيمان، ولا ضمان للانقياد.

وإني لسائل هؤلاء وأولئك أى المقاصد أحق أن تتبع، مقاصد الإسلام أم مقاصد الجماعة المتطرفة؟! وسطية الإسلام أم غلو الجماعة؟! مع الوضع فى الاعتبار أن القول بأن مقاصد الجماعة هى ذاتها مقاصد الإسلام، وأن منهج الجماعة هو منهج الإسلام زعم يرفضه الواقع، ويفتقر إلى مزيد من المراجعات الدقيقة لإدراك الفروق بينهما، ولا يمكن الوصول إلى ذلك فى ظل الادعاء ورفض المراجعات ؛ إذ لا يمكن اختزال قيم الإسلام فى قيم جماعة متطرفة أو اتجاه منحرف، كما لا يمكن اختزال ثقافته فى ثقافة أى منهما، أو مقاصده فى مقاصدهما .

ولابد من الاختيار الدقيق الواضح بين فكر الإسلام الوسط وفكر الجماعة الغالى، وبين ثقافة السلام وثقافة العنف، أما أن تظل ازدواجية المعيار وثنائية الانتماء هى المرجعية الدعوية والمقياس للالتزام وعدم الالتزام فهذا ما لا يتوافق ومبادئ الإسلام ومقاصده ومنهجه.

فما هذه الازدواجية وتلك الثنائية إلا غطاء لأعمال عنف وإرهاب، ترتكب ضد الشعوب باسم الدين وضد الأبرياء بزعم تحقيق العدل الاجتماعى .

إن ازدواجية المعيار وثنائية الانتماء ترفضها الآية الكريمة: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنُكُمْ بِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(١).

وتأباها الأحاديث النبوية : " لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا " ^(٢). " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة " ^(٣)، وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب لكميل بن زياد النخعى : يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة : فعالم ربانى، ومتعلم سبيل نجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ^(٤).

(١) الأنعام : ١٥٣ .

(٢) سنن الترمذى : حديث رقم ٢٠٠٧، وقال عنه : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ٣٦٤/٤.

(٣) سنن الترمذى : رقم ٢٥١٨، وقال عنه : حديث صحيح ٦٦٨/٤.

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم، والذهبى فى تذكرة الحفاظ ١١/١، دار الكتب - بيروت - بدون تاريخ، وأبو نعيم فى الحلية ٧٩/١ - دار الكتب العربية - بيروت ١٤٠٩هـ .

أفٍ لحامل حق لا بصيرة له، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا يدري أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدرك، مشغوف باله بما لا يدري حقيقته، فهو فتنة لمن افتتن به، وإن الخير كله من عرفه الله تعالى دينه، وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف دينه . وقول ابن مسعود رضي الله عنه: لا يكن أحدكم إمعة، قالوا : وما الإمعة ؟ قال : يجرى مع كل ريح ^(١).

فكل من الازدواجية والثنائية يعمل على تذبذب المرء بين فكرتين ينتسب لإحداها بينما تجذبه الأخرى إليها جذباً، فلا يدري إلى الأصل ينتمي أم في الفرع ينخرط، وهذا دلالة عدم الثبات الفكري والنفسى، وهذه الروايات عن الصحابة والسلف الصالح توضح أن الجيل الرائد من الصحابة ومن سار على هديهم التزموا البناء التربوي النبوي في تكوين الشخصية المسلمة وتحديد معالمها، فهي شخصية مستقلة عاقلة حكيمة بصيرة لا شخصية تبعية جاهلة حمقاء، شخصية واضحة سلسلة القيادة لا تتعق وراء كل ناعق ولا تميل مع كل ريح، تعرف الحق بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال بل تعرف الرجال بالحق .

إن افتقاد هذه الموازين الدقيقة للتربية من شأنه أن يؤثر على قناعات الأشخاص وسهولة استدراجهم إلى ثقافات ومبادئ وغايات تتناقض مع جوهر الثقافة الإسلامية الوسطية السلمية، وعلى القادة الدينيين أن يدركوا خطورة هذه التوجهات في إعداد قادة يحملون البلاغ الدعوى من بعدهم .

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١٥٨/٣.

المطلب الثالث

الفرض الثقافي بين الانتقائية والتبرير

من المبادئ المذهبية التي تؤثر على ثقافة السلام « الفرض الثقافي بين الانتقائية والتبرير ». وأعنى بالانتقائية أحد الأمور الآتية :

أولاً : انتقائية النصوص والأدلة .

ثانياً : انتقائية الدلالة : أى انتقائية التفسير الدلالى للنصوص بما يتوافق مع فكرهم .

ثالثاً : التأويل المغرض للنصوص .

والانتقائية بهذه المعانى لا تعنى إلا مزيداً من الإقصاءات لكثير من النصوص التي لا تتوافق مع أطروحات الاتجاه، كما لا تعنى إلا مزيداً من التجريد لدلالات وسطية تتناقض مع ثقافة التوجيه وقضاياها الفكرية .

ويأتى التأويل المغرض للنصوص ليفرض - بعد هذا التمهيد الإجرائى فى أولاً وثانياً - على النصوص ودلالاتها معنى جديداً، وهو ما يمكن أن نطلق عليه: « التفسير القسرى للنصوص الشرعية »، ويتمحض لإضافة معانٍ جديدة حول القضايا الدعوية مع دلالة النصوص الظاهرة عليها .

ويبدو هذا بوضوح فى أطروحات الفكر السياسى لبعض الاتجاهات الفكرية الدينية التى تحاول فرض نفسها على الواقع الفكرى والدعوى لتصنع واقعاً فكرياً جديداً تسوق الناس إليه سوقاً، وتأسر عقولهم فى معطياته أسراً، مجافية بذلك ثقافة الإسلام الوسطية .

وأعنى بالتبرير : تبرير هذه الأطروحات الفكرية الجديدة بأنها تمثل جوهر الفكر الإسلامى الحق فضلاً عن جوهر الدين الصحيح، لتناقض بذلك صحيح المنقول وصريح المعقول، مصادمة للفترة التى تقتضى ضرورة اعتبار السلم قاعدة أصلية من قواعد تنظيمها الاجتماعى وتقديرها لضرورات الحياة الاجتماعية .

إن الفرض الثقافى القائم على نزعتى « الانتقائية » و « التبرير » يمثل ثورة فكرية منقطعة النظير على كل ما هو سلمى فى التشريع السياسى، كما يمثل إغراقاً متعمداً للمجتمع فى فكر هذه الاتجاهات الدينية بمعطياتها القسرية ومقاصدها النفعية .

ويأتى مبدأ « الولاء والبراء » أى الولاء للدين، والبراء ممن لا يدينون به، ليمثل سوطاً يساق الناس به إلى الإيمان بهذه الأطروحات، وليس على مستوى الفكر فقط، وإنما على مستوى الاعتقاد ليفرض واقعاً عقدياً تشريعياً جديداً يلزم الناس بضرورة التزامه، باعتباره مقياساً وحيداً

للتدين وصدق الانتماء إلى هذه الاتجاهات .

ولئن كان « الولاء والبراء » كلاهما مستتبطيناً من نصوص شرعية بمعنى الولاء لله تعالى ولرسوله ﷺ والمؤمنين، والبراء مما لم يكن لله تعالى أو لرسوله ﷺ ولا للمؤمنين، أى الولاء للإسلام والبراء من اتباع غيره، فقد أضفى عليه مفهوماً جديداً، وهو الولاء لفكر الجماعة والبراء مما يخالفه، وهذا اختزال قسرى لمفهوم الولاء والبراء، فبدلاً من أن يكون للإسلام صار للاتجاه، بدلاً من أن يكون للرسول ﷺ صار للأمر، وبدلاً من أن يكون للمسلمين عامة صار للجماعة خاصة .

هكذا تتبدل المفاهيم وتتغير باسم الدين، وفي هذا الإطار تستغل مشاعر الناس الدينية من حب الدين والطاعة والالتزام، وتقاس بمقياس الولاء والبراء، فأنت طيِّع ودينٌ بمقدار ولائك للجماعة، وأنت غير كل ذلك بمقدار عدم ولائك لها وانتمائك إليها !! .

ورويداً رويداً يرتقون بهم فى سلم الطاعات فيغرونهم بفكرة الجهاد⁽¹⁾ وأنه شريعة إسلامية لإعلاء كلمة الله تعالى، فيعتقدون هذه الفكرة ويؤمنون بها، وشيئاً فشيئاً يغيرون معتقدات الناس فى الجهاد تحت مؤثرات من « الظلم الاجتماعى » ودعوى «القهر السياسى » ، وتأتى الفجيرة الكبرى بحكمهم على هؤلاء الحكام بأنهم كفار يجب جهادهم وقتالهم .

انظر كيف تتبدل المفاهيم فى سلم تدريجى اختزالى من الأفكار إلى المواجهة المسلحة مع البقيين بأن هناك قوى تستغل هذه المعتقدات لتحقيق مصالحها، وليس بخاف دعم هذه القوى لبعض الجماعات الإرهابية المؤثرة على مسرح الأحداث السياسية وما انشق من اتجاهات منحرفة متطرفة اتخذت لها مسميات مختلفة ملأت الأرض بأحداث العنف والإرهاب ضد الأبرياء الأمنين.

أهذا هو الإسلام؟! لا، إنه فكر الجماعة والاتجاه، فكر الإرهاب واللامبالاة بمصالح الإسلام العظمى ومصالح الوطن الكبرى .

إن الخطورة تكمن فى عكس العلاقة الطبيعية بين النص والثقافة، فالترتيب الطبيعى احترام النص الدينى الصحيح وتقديسه، والحفاظ على رتبته وصدارته، وهذا ضمان معيارى قيمى لضوابط الثقافة الراشدة، فالنص فى هذا الإطار هو الحاكم والضابط والمرشد والهادى .

أما عكس هذه العلاقة فيعنى الانطلاق فى فهم النص من الثوابت الثقافية، أى : ثقافة المذهب والاتجاه، مما يؤدى إلى التحكم فى دلالات النص وتطويعها لخدمة مشاريع ثقافية ذات طابع مصلحى أو مذهبى، ومع أن هذا النهج المرفوض شرعاً وعقلاً لا يؤثر على بنية النص، إلا أن له تأثيراً على دلالاته ومفاهيمه فى إطار التفسيرات التطويعية القسرية.

(1) فى حين أن الجهاد فى الإسلام شرع درءاً لعدوان غير المسلمين على الدين والعرض والأرض .

الفرض الثقافي بين اغتيال الذاكرة وتغييب العقل :

إن هذه النزوعات الثقافية لا يكتب لها الذيوع والانتشار إلا في ضوء عمليات قسرية طاغية، وإجراءات عقلية قاسية وممنهجة من السطو على الذاكرة الثقافية وتغييب العقل عن التفاعل المثمر مع مدلولاتها ومعطياتها البنائية، فهي تمثل عملية انفصام حادة بين قيم التراث النافعة وبين المكتسبات الثقافية الجديدة، بين مقاصد الشريعة وطموحات المشاريع الثقافية الكبرى .. بين اليقينيات الدينية والظنون الفكرية والمذهبية .

إنها عملية هائلة من الإزاحات الفكرية لكل ما يعرقل هذه المشاريع الثقافية الموجهة .. إزاحة للمعايير والقياسات والضوابط المنهجية والقضايا الفكرية التي تمثل في ذاكرة الثقافة الإسلامية الراشدة شخصاً قوياً المعالم، بينة الدلالات، واضحة المقاصد، نبيلة الغايات، كما تمثل إزاحة للعقل الناقد القادر على التمييز بين الصواب والخطأ، وبين صادق الأطروحات الثقافية وكاذبها، وبين فطنة العقل وهوى المذهب، وبين صفاء الفكرة ودنس الغرض، كل هذا لتوجيه الخيارات الثقافية للأمة في ضوء أطروحات جديدة، وفي إطار عمليات انتقائية ممنهجة في التعامل مع خيارات التراث الإسلامي.

وهنا تبدو عملية السطو الممنهج على التراث الإسلامي الثقافي لإزاحة ما تظنه خبثاً لا يسعها في إثبات رؤاها وتصوراتها، وما تحسبه عقبة كأداء أمام تحقيق مشروعها الثقافي، إنها فقط تختار منه ما يتناسب مع رؤاها، وتطوع قسراً ما قد ينقض محتواها، وفي إطار هذا التوجه تقفز على ثوابت الجهاد في الثقافة الإسلامية وتطوعها لخدمة مبدئها « جهاد الأنظمة » التي تعتبرها كافرة لخدمة مشروعها السياسي وصبغه بالصبغة الشرعية، وقد قفزت على مفهوم الجهاد في الإسلام فجعلته أحد أربع صور :

- ١ - جهاد الأعداء : مقاتلة المعتدين، وهذا أمر مشروع تقره الأديان الصحيحة، والفطر السليمة، والعقول الراشدة، وهو جهاد الدفاع عن النفس، والمال، والدين، والوطن .
- ٢ - الجهاد المطلق : أي في السلم والحرب، وهذا مبدأ خاطئ يتنافى مع مبادئ الإسلام وأصوله التشريعية، ومقاصده الإنسانية .
- ٣ - جهاد السلطة أو الأنظمة التي لا تمكنها من تنفيذ مشروعاتها السياسية .
- ٤ - جهاد المؤيدين للسلطة : بتصفيتهم جسدياً أو اغتيالهم معنوياً .

وفي الأخيرين يتحول الخلاف السياسي إلى ضابط فاسد للتكفير عند هؤلاء، وتذبح البراءة على مشاعر دينية زائفة، ولا مانع عندهم من أن تتخضب أيديهم بدماء الأبرياء بينما تقطر لحاهم

بآثار الوضوء !! فمن قال من علماء الأمة عبر عصورها المتعاقبة: إن الخلاف الفكري أو السياسى مسوغ للقتل أو التصفية أو الاغتيال؟!

ومن قال: إن الوقوف بجانب الحاكم بقصد الحفاظ على التدين الراشد وحماية مصالح الدولة والحفاظ على دم مواطنيها ينقض الدين أو يصادم العقل والفطرة؟

وقد قال الرسول ﷺ: " ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم " (١)،

وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ ۗ ﴾ (٢)، لما نزلت - هذه الآية - كان رسول الله ﷺ يقاثل من قاتله ويكف عن كف عنه « (٣) .

والتعويل هنا فى القتال على المثلية، والعدوان على المسالمين منهى عنه « ولا تعتدوا » والعلة صريحة فى تذييل الآية « إن الله لا يحب المعتدين » وهذه صورة ذهنية واضحة تتسق مع العقل والمنطق، وتتظم مع الفطرة والدين .

وهى خاصة بقتال من قاتل من المشركين، أى أن الجهاد المأمور به فى الآية الكريمة هو جهاد أعداء الإسلام المعتدين، وليس قتال المسلمين المخالفين للرأى والتوجه السياسى، ولكن محاولة تخييب هذه المفاهيم عن العقول فى إطار التكوين الثقافى والتشكيل الفكرى، والإصرار على طرح ما يخالفها لأنه يتفق والمذهب ليس إلا تخييباً للعقل واجتزاءً للذاكرة.

وعلى القادة الدينيين أن يدركوا أبعاد هذه النزوعات والثقافات الجديدة، وأن يحذروا المسلمين من خطورتها، ليس فقط على الثقافة، وإنما على التشريع الإسلامى، وعلى مقاصد الشريعة من حفظ النفوس، والدين، والأموال، والنسل، والأوطان .

(١) سبق تخريجه .

(٢) البقرة : ١٩٠ .

(٣) تفسير سورة القرآن العظيم، لابن كثير ١/٥٢٣ .

المطلب الرابع

الأطروحات الثقافية بين عنف الفكرة وفكرة العنف

إن « عنف الفكرة » و« فكرة العنف » قضيتان خطيرتان تتهددان ثقافة الإسلام السلمية الوسطية، وهما فكرتان نزاعتان إلى استخدام القوة لإرهاب الناس وترويعهم وإن كانت « عنف الفكرة » قضية ذهنية بحتة تولد في الذهن وتغذيها عوامل نفسية واجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية فإنها تسلم في النهاية إلى فكرة العنف، وهي قضية سلوكية تولد على محك الاختيار للثقافة والوعي .

ولا يخفى ما بين الفكرتين من علاقة ذات وجهين :

أولهما : العلاقة التكوينية للذهن، فالأولى مكونة للثانية .

وثانيهما : العلاقة التأثيرية في السلوك .

فترتيب الثانية فكرة العنف على الأولى « عنف الفكرة »، ترتب على غائي، فالأولى علة للثانية، والثانية غاية للأولى، وهما معاً يتناهيان في التماهي النفسى النزوعى الدال على قبح النفس وغيابة الذهن، وتتماهيان في الدلالة على مدى ثورة الذهن والباطن، أى ثورة الفكرة الكامنة التى تمثل طاقة سلبية مهيئة لاستجابة الوجدان، وثورة النزوع الفعلى المعبرة عن استجابة الجوارح، أو ما يمكن أن نطلق عليه « القوة الجارحة » وهما معاً يؤديان إلى حراك اجتماعى يميل إلى استخدام العنف فكراً وينزع إليه سلوكاً .

هذا هو تشكيل العقل، وتكوين الفكر بين فكرتين متماهييتين تتطلقان من دائرة « العنف »، وبين الفكرتين تتوارى ثقافة السلام الاجتماعى أو تتلاشى، فلا هى قابعة فى الذهن، ولا كائنة فى النزوع السلوكى، ولا منفعل بها الوجدان .

ويعمل على اندماج دائرة العنف بنوعيه الذهنى والسلوكى عدة أمور، منها ما يلى :

١ - هواجس الانهزامية، وطموحات الانتصار .

٢ - تأزيم المشهد التاريخى، والسياسى، والاجتماعى .

٣ - أزمة القيم وانتكاسة الضمير .

وفيما يلى بيان ذلك :

أولاً : هواجس الانهزامية وطموح الانتصار :

إن الخوف من فشل المشروع السياسى يمثل هاجساً نفسياً قوياً يهز أركان قاداته ومنظريه، وداعميه، ومنظومته الثقافية، ونظرياته الفكرية المذهبية، الأمر الذى يدفع تلك القيادة إلى البحث عن عوامل تبعث الأمل فى النهضة وتزكى الشعور بها وتولد فى عقول أتباعها وأشباعها قناعات

بحتمية الانتصار فى معركة من أجل البقاء، والحفاظ على كينونتها السياسية أكثر من حفاظها على مشروعها الثقافى، لاسيما أن مشروعها السياسى هو أساس وجودها، فى حين يمثل مشروعها الثقافى قوتها ونهضتها وبقاءها .

ولا غرو، فإن تلك القيادة تحقق بهذا المشروع الثقافى عمليات استقطاب حادة لتوسيع قاعدتها السياسية ونطاق تأييدها الشعبى، وكلما قوى هاجس الخوف من الانهزامية لديها كلما اندفعت بقوة غير محكومة بالعقل إلى إرعاب المجتمع وإرهابه، من خلال ممارساتها الإجرامية ضد المواطنين الأبرياء، فى حين يطرب أتباعها متجاهلين أن الضحايا هم أبناء وطنهم، بل وإخوانهم فى الدين والإنسانية، وأن مقدرات الشعب التى تذهب هدرًا هى ذاتها مقدراتهم ولكنهم لا يبالون بهذا، ولا يرفعون عن الطرب لهذه الأحداث والمشاهد الدامية، رغبة فى تحقيق الذات المتطرفة والكيان المختل مستخدمين شعارات إقامة الدولة الإسلامية وكأنه لم تكن هناك دول قائمة بالفعل تعبد ربها وتسعى من أجل عمارة الكون .

ثانيًا : تأزيم المشهد السياسى والاجتماعى :

تعمل بعض أطروحات هذه الاتجاهات الثقافية على تأزيم المشهد السياسى والاجتماعى، فتضع المجتمع أمام أزمة حقيقية من خلال محاولاتهم المتعددة لإيقاع المجتمع بطوائفه الإسلامية والمسيحية فى مشاهد عنف دامية تهدف إلى إحداث فتنة طائفية وتحويل المشهد الاجتماعى المتماسك إلى تناحر سياسى وعراك اجتماعى وصدام إنسانى يؤدى إلى إحداث صدع قوى فى كيانها السياسى وبنائها الاجتماعى ووحدتها الوطنية، مع أن الإسلام نهى عن إرهاب الأمنيين والمسالمين وترويعهم، وسلب أموالهم، وهدم بيوت عباداتهم.

وتحتفظ لنا ذاكرة التاريخ بالكثير من التشريعات والممارسات السلمية التى التزم بها الصحابة والتابعون ومن بعدهم - رضى الله عنهم أجمعين - والتى بينها لهم رسول الله ﷺ وحرص عليها القادة الدينيون والرواد المصلحون فى دعواتهم الإصلاحية ومنها : حفظ العهود والمواثيق، ونبذ الخيانة وعدم إرهاب الأمنيين وترويعهم، وبذل السلام وإفشائه، والرفق بالإنسان والرحمة به والشفقة عليه، إلى غير ذلك من التشريعات الإسلامية التى أرساها القرآن الكريم وبيّنها بقطع النظر عن الدين والعرق واللون .

ثالثًا : أزمة القيم وانتكاسة الضمير .

تأتى مجافاة التشريع الإسلامى من قبل هؤلاء من خلال أطروحاتهم الثقافية التى تنزع إلى العنف، وتجعله شرعة تستمد منه قوتها، لتمثل أزمة قيمية فى التصور الأخلاقى والممارسة

السلوكية، وتضع الضمير فى أزمة تاريخية وانتكاسة إنسانية تغير من صور المشاهد الاجتماعية بما تزخر به من قيم أخلاقية ومبادئ وغايات إنسانية نبيلة، وشرعة ربانية عاشت المجتمعات فى ظلها أمانة مستقرة .

وقد بدت ملامح التغيير فى جوهر هذه المشاهد وحركاتها حيث البوادر الخطيرة التى تبدل فيها قيم الأمان إلى غدر، والسلم إلى كراهية، والأمن إلى إرهاب، وحرمة الدم إلى اغتيال وتصفية جسدية، وصيانة المال إلى استباحته، والأخوة الإنسانية إلى عدا، والتوافق إلى نزاع، والحوار إلى إقصاء ومُصادرة .

وعلى القادة الدينيين والمصلحين مراعاة هذه التحولات الخطيرة فى المشهد الاجتماعى فى الأونة الأخيرة، ومراعاة خطورة العوامل المؤثرة فى صياغة ثقافة السلام، وبيان قيم الإسلام الإنسانية، وضرورات التعايش السلمى، والحوار الحضارى الإنسانى الفعال فى صيانة حقوق الأمم والشعوب وواجباتهم، وبيان خطورة هذه المتغيرات على إعداد القادة الجدد وعلى ثقافة المجتمع وجوهر ثقافة الإسلام السلمية .

المبحث الثالث

آثار ثقافة العنف والكراهية

ليس بخاف على المهتمين بدراسة الظواهر الثقافية والمعنيين بها إدراك ما لثقافة العنف من آثار خطيرة على الفرد والمجتمع، لاسيما في إطار إعداد القيادات الدينية والإصلاحية التي من المفترض إعدادها لحمل أمانة البلاغ الدعوى إلى الناس كافة، بهدف الإصلاح الديني والاجتماعي، وصياغة وتكوين العقل الجمعي المؤثر في صناعة المشاهد الاجتماعية والتاريخية والسياسية، والظواهر الفكرية والثقافية، وقيادة المجتمع، بجانب القيادة الدينية، حيث انفعاله بها وتماويه مع دورها الإصلاحى ورسالتها الدينية التعبدية والقيمية، واستيعاب المتغيرات الثقافية والتحديات الفكرية والتفاعل معها من خلال رؤية نقدية فاحصة تُركى إيجابياتها وتلفظ سلبياتها، كما تمثل هذه التحديات عقبة كأداء أمام استقرار المجتمعات الإنسانية، وتحقيق أمنها وسلمها، لاسيما من خلال مقومات التعايش السلمى، وقيم الحوار الثقافى، وقضايا التوافق والائتلاف، والحقوق والواجبات، وتقدير العيش المشترك، وضرورات الاجتماع البشرى، ومن هذه الآثار الخطيرة لثقافة العنف أثران جامعان لما يندرج تحتها من تفصيلات دقيقة وقضايا جزئية تعيق النهوض الاجتماعى وتهدد الوجود الإنسانى، وهما :

١ - نزعة الـ « أنا » والتفرد بالوجود .

٢ - ثقافة الكراهية ورغبة الانتقام .

وفيما يلى نتناول تفصيل هذين الأثرين الخطيرين لثقافة العنف على الأوضاع الدينية والثقافية، والمشهد الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى المجتمعات الإنسانية.

المطلب الأول

نزعة الـ « أنا » والتفرد بالوجود

نزعة الـ « أنا » والشعور بالتفرد بالوجود . أثر خطير من آثار ثقافة العنف يتهدد تكوين القيادات الدينية والإصلاحية، وتشكيل عقلها ونزواتها القيمية والسلوكية، والـ « أنا » التي أقصدها هي :

١ - الـ « أنا » الفردية .

٢ - الـ « أنا » المذهبية .

وأعنى بالـ « أنا » الفردية : تلك الحالة الشعورية التي تستغرق الفرد من حيث شعوره بالتفرد الوجودي في الكون . أما الـ « أنا » المذهبية فأعنى بها أيضا تلك الحالة الشعورية التي تستغرق المذهب من حيث الشعور بتفرد الوجودي في الكون .

وهاتان النزعتان تمثلان ظاهرة مرضية باعتبار كل منهما نزعة استعلائية تصادم الفطرة، وتنقض سنن التكوين الاجتماعي، لاسيما أنهما يدفعان إلى ضرورة محو الأغيار، أو الآخر من الوجود، أو على الأقل تهميشه في زاوية المجتمع البعيدة عن بؤرة الاهتمام، واعتباره عبئاً على النهوض الثقافي والاجتماعي، وعقبة أمام تحقيق مشاريعهما الوجودية .

فكلتا النزعتين نزعة إقصائية تعمل بقوة فاعلة على محور الطرد المركزي لمكونات النسيج الاجتماعي، بحيث لا يبقى الفرد والمذهب، وهاتان غايتان نفعيتان تهدفان إلى الصراع من أجل البقاء والتفرد بالوجود الحياتي أو الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، وهو نزوع وحدوي تسلطي ديكتاتوري انغلاقى، وإن انطلق من ثقافة تصطبغ بالدين، إلا أنها ثقافة صبغت وفق مبادئ المذهب أو نزعات التفرد، ولا تعبر بالضرورة عن الدين الحق .

مكونات الـ " أنا " المرضية .

عند التأمل الفاحص والإدراك الواعي نجد أن ثمة عاملين مكونين لهذه الـ " أنا " المرضية، يشكلان جوهرها، ويحددان ملامحها هما :

١ - التعاضم .

٢ - الشعور بالرغبة في الاستقواء .

أما التعاضم : فهو حالة شعورية تُفعل في النفس الشعور بالعظمة والكبرياء على الآخر، وأما الشعور بالرغبة في الاستقواء : فهو منبثق عن الشعور بالضعف، وهذان العاملان، وإن كانا متناقضين من حيث الماهية، فهما يتماهيان في المقاصد والغايات، وهما معا يفعلان من النزوع إلى

الاستقطاب الحاد على المستوى الفردى والشعبى بهدف تقوية التكتل واستظهار القوة والتعاضد من أجل الالتفاف حول دعم المشروع الثقافى والسياسى، أو المصالح الفردية والمذهبية، أما مصلحة المجتمع أو الدولة فتتوارى وراء هذه المصالح قابضة فى زوايا العقل البعيدة ترسفت فى أغلال التهميش !!

أما تناقض هذه النزعة مع الفطرة وتناقضها مع السنن الإلهية فى تكوين النسيج الاجتماعى، فلأن الإنسان مفطور على ما يلبي حاجياته الفطرية من حب الانتناس بالآخرين وتحقيق حاجياته الإنسانية من التراحم والمودة والشفقة، ولأن سنن الاجتماع البشرى تقتضى ضرورة التعارف والتعاون والتآصر، وهذا وذاك من لوازم التكوين النسيجي للمجتمعات البشرية .

وقد أفرزت هذه الـ « أنا » المرضية بنوعها الفردى والمذهبى أو الجماعى فى التاريخ الإسلامى فتنة كبرى فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان انتهت بقتله ﷺ من قبل السبئيين أتباع المنافق عبد الله بن سبأ، رغم كل الجهود التى بذلها لإخماد الفتنة والقضاء على حالة العصيان السياسى الذى كاد يقوض أركان الدولة الإسلامية آنذاك، ورغم ما بذله أمير المؤمنين عثمان ﷺ لتجنب إراقة دم المسلمين^(١).

لكن الكراهية والبغضاء لم تبق له حياة، ولم تشهد له بفضل، وهذه الثقافة البغيضة يعاد إنتاجها بثوب جديد لاسيما فى هذه الآونة التى تهدد فيها السلم العام والأمن الاجتماعى فى دول العالم تماهياً مع فكر الخوارج فى عهد الإمام على بن أبى طالب والذين كفروا المسلمين بالذنوب واستحلوا دماءهم وأموالهم جهلاً بالدين وغلواً فيه^(٢) وطعنوا فى الأئمة وخرجوا على الحكام.

الـ « أنا » وتناقض المصالح :

إن تناقض المصالح أمر بدهى تشهده الساحات الاجتماعية وتزخر به المشاهد التاريخية، ذلك أن أمزجة الناس مختلفة وطلبهم للحاجات متغاير، وطرق تحقيقهم لها متنوعة، ومنازعتهم فيها

(١) راجع مشاهد هذه الفتنة فى كتاب سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره د/ على محمد ص ٣٣٣ - ٣٩٦ ، دار المعرفة بيروت لبنان ؛ وقد كان عبد الله بن سبأ كما يقول الذهبى « من غلاة الزنادقة ضال مضل » ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبي ٤٢٦/٢ تحقيق على الجاوى دار إحياء الكتب العربية القاهرة ط ١ ١٣٨٢ هـ يقول ابن حجر : « له أتباع يقال لهم: السبئية معتقدون الإلهية فى على بن أبى طالب وقد أحرقتهم على ﷺ بالنار فى خلافته » لسان الميزان أحمد بن حجر. حيدر آباد الدكن ٣/٣٦٠، دائرة المعارف العثمانية ١٣٣١ هـ - ١٩١٢ م .

(٢) نواذر الأصول، محمد حكيم الترمذى ص ٥٤٠ .

متباينة، الأمر الذى يقتضى تناقض المصالح وتغايرها واختلافها، وبالرغم من ذلك فإن المقاصد والغايات تنفق فى تحقيق الضرورات الحياتية والحاجيات والتحسينات اللازمة للمجتمعات الإنسانية. وبدهى أن موقف الناس حيال هذه التناقضات لا يعدو أحد أمرين :

أولهما : التوافق والحوار اللذان يؤدىان إلى التعاون من أجل تحقيق صالح الإنسانية .
ثانيهما : الصدام والتناحر والافتتال بدافع الأنا المرضية سواء أكانت فردية أم طائفية أم مذهبية أم جماعية، مما يؤدى إلى تفويت فرص التوافق الاجتماعى فى هذا الصدد .
ولما لم يكن من مقتضى الحكمة أن تبيد طائفة أخرى من أجل تحقيق ضروريات الحياة أو الاستيلاء على السلطة وتحقيق الامتياز فلم يكن هناك بد من التعارف والتعاون بين الأفراد والجماعات من أجل تحقيق هذه الضروريات لاستمرارية الحياة بغض النظر عن اختلاف الدين .
وقد جاءت آيات القرآن لتراعى فى تشريعاتها هذا الجانب الضرورى فى حياة الناس، قال تعالى :

١ - ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۗ ۝ (١) .

٢ - ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ (٢) ۝ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۗ ۝ (٢) .

٣ - ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۗ ۝ (٣) .

٤ - ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَةَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا أَهْدَىٰ وَلَا أَلْقَيْدًا وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۗ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) النساء : ١ - ٢ .

(٣) الإسراء : ٧٠ .

شَتَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا^ط وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى^ط وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ^ع وَاتَّقُوا اللَّهَ^ط إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾.

٥ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا^ع أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ^ع إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾.

٦ - ﴿وَإِنْ طَافَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا^ط فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ^ع فَإِنْ فَأَتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا^ط إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٣﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ^ع وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمًا مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ^ط وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ^ط بئسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ^ع وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ^ط وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ^ع وَاتَّقُوا اللَّهَ^ع إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾.

٧ - ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا^ع وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ

(١) المائدة : ٢ .

(٢) المائدة : ٨ .

(٣) الحجرات : ٩ - ١٢ .

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِّنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا^ط
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾.

وهذه الآيات الكريمة قد تضمنت قواعد تشريعية خاصة بالمؤمنين، وأخرى عامة تنتظم الحياة البشرية وهذه وتلك ترفع الاختلاف، وتقضى على الفتن، وتأمّر بالتعاون من أجل البقاء، وتحقيق صالح الإنسانية، وتنتهي عن الصدام والقتال وصيانة الدماء والأموال والأعراض، والظلم والقهر، وتنتهي المسلمين عن مجرد الإيذاء بالكلمة والغمز واللمز ويدخل فيها الإيذاء بمطلق الإشارة .

إن تشريعات الإسلام تدور حول هذه المشاعر مراعية حق الأفراد والجماعات في الحياة ، وتبين حقوقاً وواجبات إن التزم بها المجتمع الإنساني فضلاً عن الإسلامى ستستقيم بها حياة البشر ويتحقق الأمن والاستقرار، فهي إذن تراعى قضيتين هما :

١ - الأخوة الإنسانية عامة تنتظم كل البشر دون قيد الدين.

٢ - الأخوة الدينية خاصة بالمسلمين .

والمقام لا يتسع لبيان هذه التشريعات بتفصيلاتها وحسبنا سوق الشواهد على ما ذكرنا . وهكذا تأتى هذه التشريعات لتهديب الـ « أنا » الفردية المذهبية أو الطائفية من أجل استقرار المجتمع وتحقيق السلم العام، وتوفير المناخ الملائم للعيش المشترك بين الناس بدلاً من القتل وإراقة الدماء وترويع الآمنين وإرهاب المجتمع باسم الدين أو الثقافة أو الفكر .

ومن مقتضيات سنن الله تعالى في الخلق أن الكون قسمة مشتركة بين الخلائق ولا يجوز لأحد الاستقواء بحق الوجود والحياة، لذلك كانت الـ « أنا » بصورتها ظاهرة مرضية مناقضة للفطرة والعقل وسنن الله تعالى في خلقه .

(١) المائدة : ٣٢ - ٣٣ .

المطلب الثاني

ثقافة الكراهية ورغبة الانتقام

إن ثقافة الكراهية ورغبة الانتقام أثر مباشر لثقافة مترتبة على الأثر السابق " نزعة " الأنا ورغبة التفرد بالوجود، وذلك أن استعراق الـ « أنا » الفردية أو المذهبية يدفع إلى كراهية الآخر، ورغبة الانتقام منه، إنها تلك الثورة اللإنسانية التي تتوقد جذوتها في أعماق النفس فتنبعث في الآفاق شظاياها مبرزة إلى الوجود مخبوء الصدور وما انطوت عليه النفس من كراهية للمجتمع ورغبة في الانتقام منه.

وقد حرص التشريع الإسلامي الحكيم على معالجة هذا المرض النفسى الخطير من خلال سد الذرائع المؤدية إليه والأسباب الداعية إليه .

وفيما يلي بيان ذلك:

- ١ - تحريم النظرة الساخرة التي تنثير في النفس كوامن الكراهية وتوغر الصدور قال رسول الله ﷺ : " لا يحل للمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه " (١).
- ٢ - تحريم ترويع الأمنين وإيذائهم قال رسول الله ﷺ : " إن الله يكره أذى المؤمنين " (٢).
- ٣ - تحريم البغى على الآخرين قال رسول الله ﷺ : " إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد " (٣) .
- ٤ - الدعوة إلى بذل السلام عن رسول الله ﷺ قيل يا رسول الله دلتني على عمل يدخلني الجنة . فقال : " إن موجبات المغفرة: بذل السلام وحسن الكلام " (٤).
- ٥ - الدعوة إلى اصطناع المعروف مع كل بر وفاجر، قال رسول الله ﷺ : " رأس العقل بعد الدين التودد واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر " (٥).

(١) رواه أبو داود في سننه بسنده عن أبي ليلي رقم ٥٠٠٤، تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - بدون تاريخ . وكنز العمال للزيلعي ١١/١٦ .

(٢) قال الإمام العراقي : أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسلًا بإسناد جيد، يراجع المغنى عن حمل الأسفار للعراقي ص ٦٥٤ .

(٣) رواه ابن ماجة في سننه بسنده عن أنس بن مالك كتاب الزهد ورقمه ٤٢١٤ وأبو داود في سننه كتاب الأدب واللفظ له ٢٠٣/٥ رقم ٤٨٩٥ .

(٤) قال عنه الزيلعي في كنز العمال: رواه الطبراني عن هانى بن يزيد ١١٦/٩ ورقمه ٢٥٢٥٨ وعزاه الحافظ له والبيهقى في شعب الإيمان بإسناد جيد .

(٥) قال الحافظ : أخرجه الطبراني في الأوسط والخطابى في تاريخ الطالبين، وأبو نعيم في الحلية .

- ٦ - جعل السلام دليل الإسلام، قال رسول الله ﷺ: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " (١)، وقال رسول الله ﷺ: " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " (٢).
- ٧ - النهى عن التفسير والتكفير بالهوى، قال رسول الله ﷺ: " لا يرمى رجل رجلاً بالفسق أو الكفر إلا ارتد عليه إن لم يكن صاحبه كذلك " (٣).
- ٨ - النهى عن سباب المسلم، قال رسول الله ﷺ: " من الكبائر شتم الرجل والديه " فقالوا: أو يشتتم الرجل والديه، قال: نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه " (٤).
- ٩ - النهى عن الإشارة بالسلاح، قال رسول الله ﷺ: " ولا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار " (٥).
- ١٠ - النهى عن أخذ ما للغير بدون إذنه، قال رسول الله ﷺ: " لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لاعبا أو جاداً فمن أخذ عصا أخيه فليردها إليه " (٦).
- ١١ - قال رسول الله ﷺ: " لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام " (٧).
- ١٢ - عن أبي خراش السلمى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه " (٨).

وهذه الروايات غيض من فيض روى عن رسول الله ﷺ في نبذ الكراهية والبغضاء، والنزوع إلى العنف، وقد قررت في معالجة ذلك منهجين، هما:

- (١) أخرجه البخارى فى صحيحه ١١/١، رقم ١٠، وكتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .
- (٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ١٩/١، رقم ٤٨، كتاب الإيمان باب "خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر" .
- (٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ١٥/٨، رقم ٦٠٤٥، باب كتاب الأدب باب "ما ينهى من السباب واللعنة".
- (٤) أخرجه البخارى ٣/٨ رقم ٥٩٧٣، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، ومسلم ٩٢/١، رقم ٩٠، كتاب "الإيمان"، باب "بيان الكبائر وأكثرها".
- (٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٩/٩ رقم ٧٠٧٢، كتاب الفتن باب قول النبى من حمل علينا السلاح، ومسلم فى صحيحه ٢٠٢٠/٤، رقم ٢٦١٧، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهى عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم.
- (٦) أخرجه الترمذى ٤/٤٦٢، رقم ٢١٦٠.
- (٧) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢١/٨ رقم ٦٠٧٧، كتاب الأدب، باب الهجرة .
- (٨) مسند أحمد ٤٥٥/٢٩ رقم ١٧٩٣٥، المستدرک على الصحيحين للحاكم ٤/١٨٠ رقم ٧٢٩٢، وقال عنه: صحيح الإسناد، وقال الذهبى: صحيح .

أولاً : **التخلية** : أى تخلية النفس وتجريدها من الأثرة والأنانية وكراهية الآخر، والإساءة إليه، وقطيعة، والسخرية منه، وغير ذلك من صور الإيذاء النفسى .

ثانياً **التحلية** : أى تحلية النفس بجميل الصفات والفضائل من المودة والرحمة وبذل السلام وإفشائه، ونشر الخير والإيثار، والحب فى الله تعالى وتوطيد أواصر الترابط الاجتماعى، والحفاظ على وحدة أنسجته، والنأى به عن مواطن الهوى ومزالق سوء .

وقد قال الله تعالى محددًا خيرية أمة الإسلام : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

وقد جاءت قيم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الآية الكريمة مطلقة من القيد، فلم تُقصر على بذله مع المسلمين فقط، وإنما مع المسلمين ومع غير المسلمين، فهى قيم إلهية مطلقة جامعة لكل صور المعروف، ناهية عن كل صور المنكر بدءًا من الكلمة البذيئة، وانتهاء بممارسة العنف ضد الآخرين المسالمين، فمن التزم بها فقد هدى، ومن استنكف أو تنكب عنها فقد ضل وأضل (وهذه الصفات الثلاثة هى المحددة لخيرية الأمة فلو اختلفت صفة منها انتفت الخيرية) (٢) .
وعلى هذا الدرب سلك القادة الدينيون مسلكهم فى الإصلاح والدعوة والإرشاد، لاسيما الجيل الأول الذى تحمل أمانة تبليغ الرسالة إلى العالمين .

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) راجع تفسير الشيخ الشعراوى - رحمه الله تعالى - لهذه الآية ٣ / ١٦٨٥ - ١٦٨٨ وراجع فى سبب نزول الآية تفسير البغوى لها ٢ / ٨٩، ومفاتيح الغيب للرازى ٨ / ١٥٤ .

المبحث الرابع

نماذج من أقوال القادة الدينيين

ودورها في نشر ثقافة السلام عبر العصور

- ١- في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله »^(١).
- ٢- وكان أمير المؤمنين أبو بكر رضي الله عنه يوصى جيشه: (وستمرون على قوم فى الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا فى الله، فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم)^(٢).
- ٣- أوصى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة حين وفاته من بعده بأهل الذمة (أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم)^(٣).
- وكان قد مر بباب قوم وعليه سائل يسأل : شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال من أى أهل الكتاب أنت ؟ قال : يهودى، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن، قال : فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فرجع له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون، وهذا من مساكين أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه^(٤).
- ٤- أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقتص للقبطى : وثمة موقف عظيم له أيضاً من ابن عمرو بن العاص مع أحد الأقباط يقر فيه قيم العدل، والدفاع عن الكرامة الإنسانية، وقد ذكره صاحب كتاب " الولاية على البلدان " ، ونصه : (أن عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما كان والياً على مصر فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترك ابن لعمر بن العاص مع غلام من الأقباط فى سباق للخيل، فضرب ابن الأمير الغلام القبطى اعتماداً على سلطان أبيه، وأن الآخر

(١) ذكره أبو يوسف فى الخراج، تحقيق/ طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ١٥٧.

(٢) نفس المرجع ص ١٣٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٣٨ .

(٤) نفس المرجع ص ١٣٩ .

لا يمكنه الانتقام منه، فقام والد الغلام القبطى المضروب بالسفر صحبة ابنه إلى المدينة المنورة، فلما أتى أمير المؤمنين ﷺ بين له ما وقع، فكتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص أن يحضر إلى المدينة بصحبة ابنه، فلما حضر الجميع عند أمير المؤمنين ناول عمر الغلام القبطى سوطاً وأمره أن يقتص لنفسه من ابن عمرو بن العاص، فضربه حتى رأى أنه قد استوفى حقه وشفاه ما فى نفسه، ثم قال أمير المؤمنين: لو ضربت عمرو بن العاص ما منعك؛ لأن الغلام إنما ضربك لسلطان أبيه، ثم التفت إلى عمرو بن العاص قائلاً: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ (١).

٥- العهدة العمرية لأهل إيليا : (هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان ... أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم أحداً، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية، كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية، كتب وحضر سنة خمس عشرة من الهجرة شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو ابن العاص ومعاوية بن أبى سفيان) (٢).

٦ - صالح خالد بن الوليد ﷺ أهل الحيرة على الجزية، واشترط لهم (ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا من قصورهم التى كانوا يتحصنون فيها إذا نزل بهم عدو لهم، ولا يمنعون من ضرب النواقيس، ولا من إخراج الصلبان فى يوم عيدهم، وعلى ألا يشتملوا على تغبة، أى:

(١) فضل عمر بن الخطاب، موقع إلكترونى، تاريخ النشر الخميس ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م/٨/١٤، رقم الفتوى ٣٦١٩٤ وراجع رعايته لأهل الذمة من كتاب سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخصيته وعصره د/ على محمد ص ٣٢٨، دار المعرفة بيروت ط ٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، وراجع الولاية على البلدان فى عصر الخلفاء الراشدين . د/ عبد العزيز العمرى ص ٨٠ بدون تاريخ .

(٢) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالى ص ٤٤، وقد فند الشيخ الغزالى ما ورد من نصوص أخرى ألحقت بهذه الوثيقة تتضمن قدحاً فى العهدة العمرية وبين أنها مكذوبة ومخالفة لمعاهدات عمر بن الخطاب ﷺ ، وقد أشار الواقدى فى فتوح الشام ص ٣٣٧ إلى مصالحة عمر أهل إيليا ولم يذكر تفصيل الصلح - المكتبة التوفيقية - بدون تاريخ .

ربية أو فساد، وعلى أن يضيقوا من مر بهم من المسلمين، مما يحل لهم من طعامهم^(١) وشرابهم).
 ٧ - عندما تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز، شئون الدولة الإسلامية، كانت أولويات إصلاحه تنصب على تحقيق الأمن الاجتماعى والسلم العام للدولة وقد بدأ بنفسه وأهل بيته، فأعاد الأراضي التي وهبت له ولزوجته وأولاده من بيت مال المسلمين، وطلب من بنى أمية إرجاع ما أخذوه من بيت مال المسلمين بدون وجه حق، كما جلس ينظر فى مظالم الرعية، فأعاد إلى الناس ما اغتصبه أفراد أسرته منهم، وطلب من موظفى الدولة والعمال مراعاة الحذر فى أموال الدولة، وعدم استخدامها للحاجات الشخصية، وعزل الظالمين والعمال القساء، وعيّن بدلاً منهم ولاية جددًا، وكان يراقب تصرفاتهم، كما قضى ديون المعسرين من بيت المال، وشملت رعايته للسجون فكان ينفق عليهم، ويكسوهم، ويتعهد مريضهم .

٨ - وقد روى أبو نعيم فى حلية الأولياء^(٢): أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين إن لى إليك حاجة فأدخلنى وعنده مسلمة بن عبد الملك، فقال له عمر: أسر دون عمك ؟ فقال: نعم، فقام مسلمة وخرج، وجلس بين يديه، فقال له : يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها أو سنة فلم تحيها ؟ فقال له : يا بنى أشيء حملتكه الرعية إلى أم رأى رأيتها من قبل نفسك ؟ قال : لا والله ولكن رأى رأيتها من قبل نفسى وعرفت أنك مسئول فما أنت قائل ؟ فقال أبوه: رحمك الله وجزاك الله من ولد خير فوالله إنى لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير . يا بنى إن قومك قد شهدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقًا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يهرق فى سببى محجمة من دم، أو ما ترضى ألا تأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين .

هذه حكمته العظيمة فى الإصلاح تخير المواطن والمواقف والقضايا خوفًا من فتنة تراق فيها الدماء ويقتل فيها الناس إن هو أغار لإصلاح فى غير حينه وطلبه فى غير مطلبه، إنها حكمة الحريص على الأمن الاجتماعى والسلم العام دونما تقصير فى رسالته .

(١) نفس المرجع، وراجع موقف عثمان بن عفان من أهل الذمة فى خلافته فى كتاب: سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره ، ص ٢٦٥ .

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصبهاني الطبعة الأولى رقم ١٧ ، ٥ / ٢٨٢ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بدون تاريخ .

٩- وكان قد كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بالعراق قال: أخرج للناس أعطياتهم. فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال؛ قال: فكتب إليه أن انظر كل من استدان من غير سفه ولا سرف فاقض عنه دينه، فكتب إليه: إني قد قضيت عنهم وبقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه: أن انظر كل بكر ليس له مال يشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه، فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه بعد مخرج هذا أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلمه ما يقوى به على عمل أرضه، فإننا لا نريدهم لعام ولا لعامين^(١).

ومن فقه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في هذا الكتاب المساواة وتحقيق الأمن الاجتماعي بين المسلمين وأهل الكتاب فقد أقرضهم من بيت مال المؤمنين ما يرد عوزهم ويرفع ضيق العيش عنهم، ويساعدهم على العمل والإنتاج.

إنها سياسة إصلاحية لا تفرق في الحقوق والواجبات بين مسلم ومعاهد من أهل الكتاب؛ لأنهم نسيج اجتماعي واحد وإن اختلفوا في الدين، لكن ضرورات الحياة الإنسانية ومراعاة العيش المشترك جعلته ينالهم بعطاياهم وكرمه، وإن كان قرصاً فمن كان يرفع عنهم الضيق إن لم يرفعه أمير المؤمنين ﷺ، وهذه إحدى روعات الحكم، وبنيات دقائق الفقه، ورقائق القيم.

وبعد، فإن النماذج التي ذكرتها عن قادة الأمة الدينيين وغيرها كثير في ثنايا التراث الإسلامي ومؤلفات معاصرة، تبين مدى اهتمامهم ببيان أن السلم أصل التنظيم الاجتماعي في الإسلام، وأنه شرعة إلهية، وضرورة إنسانية، وحاجة اجتماعية، ومطلب وجداني، وأن الحرب إنما شرعت لرد العدوان فقط مشروطة بشروطها، مقيدة بأحكامها، وأنه لا أمن ولا أمان ولا سلم ولا سلام في ضوء الاضطراب الثقافي الذي يتبنى العنف مذهباً وقتل الأبرياء شرعة، وغصب الأموال مبدأ، وإرهاب المجتمع مسلماً، وتكفير المخالف منزعاً.

(١) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ٦١/٥٤، تحقيق / عمرو بن غرامة العمري - دار الفكر ١٤١٥هـ - ١٩٨٧م.